

الوافي في الوفيات

ولم تُضَيِّقْ بذاك صَدْرِي ... لأنَّ لي أسوةُ الصحابة .

وقد قيل في ابن سناء الملك ايضاً : .

أبغضتَ كلَّـ أبي بكرٍ وما ... تَرَبَّيتَ إلَّا يداك بذا حتى ابن أيُّوب .

ولما نظم ابن سناء الملك قصيدتهُ التي امتدح بها تورانشاه أخا صلاح الدين وأولَّها : .

تَقَنَّنْتُ لَكِنَّـ بالحبيب المعمم ... وفارقتُ لَكِنَّـ عَيْشِـ مُذَمَّم .

تعمَّب عليه شعراء الديار المصرية وهجَّـنوا هذا الافتتاح وكتب إليه الوجيه ابن الذرَّوي

: .

قل للسعيد مقالَ من هو مُعْجَبٌ ... منه بكلِّ بدِيعَةٍ ما أَعْجبا .

لقصيدك الفضلُ المُبِينُ وإنَّمَا ... شعراؤنا جهِلُوا به المُسْتَغْرَبَا .

عابوا التَقَنُّعَ بالحبيب ولو رأى الطَّ ... ائِيَّ ما قد حُكِّتَهُ لتعصَّبَا .

فقال ابن المنجَّم : .

ذَرَّوينا قَتَلْتَهُ قِلَّةُ عَقْلِهِ ... فِي نَصْرِـ بَيْتِـ شَائِعٍ عَنِ ضِفْدَعِـ .

شيءٌ من الشعر الركيك رَوَيْتَهُ ... لِمُخَنَّثِينَ مَعصَّبٍ وَمَقَنَّنٍ .

قلت : لقد تحامل عليه من هجَّـنه وتَعَنَّنَّتْ من قَبِّـحه ولكن هذا من الحسد الذي جُبِّلَتْ

عليه الطَّبِيعُ الرديئة لأنه قال : " تَقَنَّنْتُ " من القناعة ورَشَّـحه بالمعمَّم فصار من

التَقَنُّعِ بالقِنَاعِ وأشار بقوله " الحبيب المعمم " إلى قول أبي الطيّب : .

ولو أنَّ ما بِي من حَبِيبٍ مَقَنَّنٍ ... عَذَرْتُ وَلَكِنَّـ من حَبِيبٍ مَعْمَمٍ .

وكذلك تَعَنَّنَّتْ شرف الدين علي بن جُبَّارة على ابن سيناء الملك وعَلَّقَ على شعره مجلدةً

سمَّاها " نظم الدرِّ في نقد الشعر " وواخذه في أشياء ما أَطْنَّه كان له ذوقٌ يَفْهَمُ بها

مقاصدَ ابن سيناء الملك . ومن ترسلَّاه ما كتب به إلى القاضي الفاضل يشكو من رمدٍ أصابه

كتب إليه لمولانا على نفسه الرحمةَ وعلى عدوِّه الذِّقْمَةَ وآتاه الخطاب والحكمة وأسبغ عليه

كما أسبغ به النعمة وعضَّدَ بآزائه الدولةَ وببقائه الملاَّةَ واعزَّـه بسلطانه الأُمةَ وأدام

أيامَه حتى تطيرَ من آفاقه النعائم وحتى تخلَّـعَ أطواقُها الحمايمُ وحتى تنزِلَ من

منازلها النجومُ العواتمُ وحتى تسقُطَ من كَفِّ الثريَّا الخواتم .

وحتى يؤوبَ القارطان كلاهما ... وَيُنْشَرَّـ في القَتَلَى كُلِّيبُ لَوَائِلِ .

خدمَتَهُ بعد أن حَمَلَتْ عينه في قبضة الرمد وبعد أن قسا قلبُه وطال عليه الأمد وبعد

أن تعاقبت فيها الدَمَعَتان دَمْعَةُ الألم ودَمْعَةُ الكَمَدِ وبعد أن أُحْـجَّتْ عليها نارُ

المؤمّدة وأصبحت منها في عمدٍ ممدّدةً وبعد أن سخّر الله عليها الآلام سبع ليالٍ
وثمانية أيّامٍ وكأنّها والله سبعُ سنين وثمانية أعوام وبعد أن فصّدت في أسبوع واحد
دفعَتين وشربَ المُسهل ثلاث مرّات وكاد لأجل السجّة يكذب ويقول مرّتين وبعد أن ملأ
الدار مُراخاً وأقلق الجار صياحاً وبعد أن كلمه العَمى شرفاها وخاطبه مُراحاً وبعد أم
مرّت بعينه العبرات والعبر وبعد أن قذفت من القذَى برمادٍ ورمّت من الدموع بشرّار
وبعد أن استشفى بتراب الرّبع الذي قال فيه الشاعر :

وربع الذي أهواه يروي شرابه ال ... عطاش ويشفى تُربُّه الأعيُن الرمدا .
فضحك رَمَدَه من هذا الشاعر الكاذب وسخر منه بالحية والشارب وأما الشاعر فلو أبصره
ما أبصره بصر المملوك لما قال :

يا شعرُ في بَمَري ولا في خَدّه ... هذا السوادُ فِداء أحمر ودّه .
ولكان يسأل الله أن يَقيّ سواد عينه بأن يُنبِتَ في خدّ معشوقه شوك القنا فضلاً عن شوك
الورد وأن يُطلع كل نباتٍ في كتاب أبي حنيفة على ذلك الخدّ ولو علم جميل بن مَعمرٍ
مِقادِرَ أذى القَذَى لما دعا على محبوبته في قوله :

رمى الله في عَينَي بُثينة بالقَذَى ... وفي الغُرِّ من أنيابها بالقوادح .
وأما القائل :

ترايهم وحقّ أبي تُرابٍ ... أعزّ عليّ من عَيني اليمين .
فخصمه على كذبه من أقسم به في هذا الشعر ولكنّهم جهلوا ما لم يحيطوا بعلمه وتكلّم
كل شاعرٍ منهم وطرفه مخلصٌ من يد سُقمه ووالله لقد ناحت المملوك وهو في شدّة المَرَض
وساوسه وخاطبته هواجسه وقالت له : لعلاك عوقبت بما كنت تدّعيه وتكذب فيه على عينك
في شعرك ولا سيّما في قولك :